لقاء المرأة السامرية

الأستاذ جورج مانتزاريذس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أي لقاء مع المسيح يدهش الناس. إن لم تندهش، يجب أن تسأل نفسك ما إذا كنت قد قابلتَ المسيح بالفعل وشعرت حقًا بحضوره. هذه الدهشة ليست غير قابلة للتفسير ولا سخيفة، بل هي مفهومة وعقلانية. إنها الأمر الذي يحدث عندما يلتقي الطبيعي بما فوق الطبيعي، يلتقي النسبي مع المطلَق ويلتقي العابر مع الأبدي.

عندما يلتقي الأشخاص الذين يغلب عليهم الخوف من الموت بربّ الحياة، وعندما يحدّق المخلوق في خالقه، تكون العلاقة غير متكافئة، وتحدث مفاجآت غير متوقعة. وتصبح هذه المفاجآت أكثر إثارة عندما يواضع الرب نفسه أمام خليقته ليخدمها. في الواقع، لا تقتصر المفاجآت هنا على الطبيعة العامة للأشياء، بل تمتدّ أيضًا إلى تفاصيلها الخاصة.

في اللقاء مع المرأة السامرية، المفاجأة الأولى هي الحوار الذي جرى بينهما بحد ذاته. يخاطب المسيح المرأة السامرية ويطلب بعض الماء ليشرب. هي تتفاجأ وتسأل: "كيف هذا وأنت يهودي تسألني عن ماء للشرب وأنا امرأة سامرية. ليس بين اليهود والسامريين معاملات".

المفاجأة مزدوجة لا بل مضاعفة. كيف يمكن أن يهودياً، يسوع، يخاطب شخصًا من السامرة؟ والأكثر من ذلك، لماذا يتحدث مع امرأة، خاصة صاحبة ماضٍ متقلب، وهو يعلم هذا جيدًا. وأخيرًا، كيف تكشف هذه المرأة الحقيقة الأكثر عمقًا للرسالة المسيانية؟

كل مفاجأة نمرّ بها هي دائمًا بسبب لقاء مع شيء جديد، أو بسبب إظهار واقع ما، أو شخصٍ ما ، أو بعض الحقائق التي لم نكن نعرفها حتى ذلك الحين. بعبارة أخرى، يرجع ذلك إلى نوع من الإعلان. وهذا أيضًا ما نلاحظه في حالة اللقاء الذي نتناوله.

المرأة السامرية متفاجئة بوجود يهودي يكسر حواجز عدم التواصل مع شعبها ويبدأ الحديث معها. يطلب منها بعض الماء ليشرب. قبل أن تصحو من هذه المفاجأة، تواجه مفاجأة أخرى، وحتّى أكبر. تسمع أن الشخص الذي طلب الماء قادر على تقديم "الماء الحي" بنفسه. لم تكن هذه المفاجأة بسبب أي إعلان جديد، بل بسبب الحيرة التي أثارتها في المرأة: "يا سيدي، ليس لديك دلو والبئر عميقة جدًا. من أين لك هذا الماء الحي؟"

"الماء الحي" يعني المياه الجارية. الماء في البئر لا يجري. لذلك هو ليس "ماء حياً". لكن هذا ليس ما يحيّر المرأة السامرية التي ما زالت تفكّر في ماء البئر. ليس في فكرها أي مياه جارية. وحتى لو كان

الأمر كذلك، فهي ما زالت لا تفهم ما كان يتحدث عنه المسيح. من ناحية أخرى، عندما قال "الماء الحي"، لم يقصد المسيح بعض الماء الجاري الذي يروّي العطش الجسدي لفترة قصيرة، بل الماء الذي يوجِد داخل الناس مصدرًا لا ينضب أبدًا للحياة الأبدية. الماء الذي يقضي على الموت.

اعتقدت المرأة السامرية أنها فهمت كلام المسيح وطلبت منه أن يمنحها هذا الماء السحري وذلك لتحريرها من مهمة جلب الماء المرهقة: "يا سيدي، أعطني هذا الماء، حتى لا أشعر بالعطش ولا أضطر إلى المجيء إلى هنا لحمل الماء". اعتقدت المرأة أنها وجدت حلاً سهلاً لمشكلتها. المسيح حدّثها عن الماء الذي ينبع في الناس ويصبح مصدر الحياة الأبدية. هي تخيّلت مياهًا طبيعية، تشربها مرة ثم لا تعود تشعر بالعطش مرة أخرى، ولا تحتاج إلى الذهاب إلى البئر للحصول على الماء.

طالما أن الناس يحصرون أنفسهم في الشؤون الدنيوية، فلن يتمكنوا من فهم الحقائق الأبدية المتسامية. يمكن أن يفاجأوا أو يصابوا بالحيرة أو يندهشوا وحتى أن يتوقعوا حلولاً سحرية. لكنهم يبقون محصورين في العالم المرئي، مقيَدين بالتّماس الجسدي المباشر. إنهم يتعاملون مع المشاكل اليومية الروتينية وعقولهم لا تذهب أبعد من ذلك. حواسهم الروحية لا تعمل. حتى لو سمعوا عن شيء يتجاوز الإحساس المباشر، شيء يتجاوز الأشياء الموجودة في هذا العالم، فإنهم يصوغونه من منظور الحواس وبطريقة دنيوية. فعلياً لديهم أسئلة، وهم يختبرون المفاجآت ويتلقون الإعلان، لكنهم لا يزالون يسلكون في المكان والزمان. إنهم يفكرون ويفهمون ويعيشون خاضعين لقانون الموت والفساد. إن الموت هو العقبة التي تعيق وتوقف كل فكر وفعل للناس، وكل مفاجأة يختبرونها أو إعلان يُمنَح لهم. لا إعلان ولا اختراع ولا فنّ ولا فلسفة تستطيع اختراق هذا الحاجز. كل ما هو معروف أو متاح لنا يكمن على "هذا الجانب" من تخوم الموت.

لا يكون تجاوز الموت بالمنطق أو الجدل ولا العلم ولا السحر. كل هذه تخدم أغراضاً دنيوية. تجاوز الموت يكون بمعجزة، بأعظم معجزة على الإطلاق أي القيامة. هذا هو السبب في أن قيامة المسيح هي أعمق إعلان، أو بشكل أكثر دقة، الإعلان الحقيقي الوحيد، لأنها تفتح لنا حقيقة جديدة تمامًا. هذا هو السبب في أن كل واحدة من معجزات المسيح هي علامة، أي سهم يدلّنا أبعد من ضواحي الموت والفساد، إلى القيامة والخلود.

كانت المرأة السامرية تتحدث إلى المسيح لكنها لم تفهم أساسًا ما كان يقوله. كان يتحدث على مستوى الحياة الأبدية. أما هي فقد نقلت تلقائيًا ما سمعته إلى مستوى هذه الحياة المؤقتة. لم يكن هناك نقطة التقاء. نشأت هذه النقطة من خلال "علامة"، أو معجزة، أعلنها لها المسيح حين قال: "اذهبي وادعي رجلك وهلمّ إلى ههنا". "أجابت المرأة وقالت : ليس لي رجل. قال لها يسوع: حسنا قلت: ليس لي رجل، لأنه كان لك خمسة رجال، والذي لك الآن ليس هو رجلك. هذا قلت بالصدق".

كلمات الرب نقلت المرأة السامرية إلى مستوى آخر. لقد قدمت لها فرصة جديدة لا تحددها الضرورة العقلانية. لقد عرضت عليها احتمالية الرؤية والصِلة التعامديتين. من بعدها تخلّت المرأة عن عقدة المياه الوجودية، أو بالأحرى نسيتها تمامًا، كما يتّضح من بقية الرواية، وطالبت بحلّ مشكلة أخرى، بها يتمّ التخلص من عطش آخر هو عطشها الماورائي.

قالت المرأة "يا سيد، أرى أنك نبي. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه". فكان لها إعلان عظيم: "تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له". الله روح ومن يعبده يجب أن يعبد بالروح والحق. الناس يتغيرون عندما يؤمنون ويعبدون، عندما يؤمنون بالله ويعبدونه "بالروح والحق"، يصبحون أيضًا وإلى حدٍ ما مثله. يصبحون روحيين وثابتين.

هنا يقفز المعتقد الديني للمرأة إلى الواجهة فتقول "أعلم أن مسيا، الذي يقال له المسيح، يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء". فقال لها المسيح "أنا الذي أكلمك هو".

هذا الإعلان الذي أُعطي للمرأة السامرية تزامن مع المفاجأة التي اختبرها تلاميذ المسيح الذين وصلوا إلى هناك في تلك اللحظة، فكانوا في حيرة من سبب تحدث معلمهم مع هذه المرأة. وكانت مفاجأتهم هذه "علامة" مفيدة. لقد كانت إعدادًا من شأنه أن يساعدهم على فهم أن الإنجيل الذي يجب أن يكرزوا به يتجاوز الحدود العرقية والاجتماعية والدينية الضيّقة.

كلما ازداد تكرّس الناس لاهتمامات هذه الحياة، يزيد ارتباطهم بأشياء هذا العالم ونسيان احتياجاتهم الأكثر عمقًا. لكن عندما يُثار قلقهم الروحي العميق، لأي سبب كان، ويدركون أن هناك جواب على السؤال الوجودي المنسي والمنبوذ من قلوبهم في كثير من الأحيان، فإنهم ينسون احتياجاتهم اليومية ويطّرحون اهتماماتهم الدنيوية.

"تركت المرأة جرتها ومضت إلى المدينة وقالت للناس هلموا انظروا إنسانا قال لي كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح". من الواضح أن المرأة نفسها كانت قد اقتنعت بأنه المسيح المنتظر، لأن هذا ما أتت لتخبر به الناس في بلدتها. أرادت أن تشاركهم فرحتها الكبيرة. لكنها، بكونها بشرية، ربما أرادت أيضًا أن يؤكّد الآخرون تحقق انتظارهم المشترك. وترافق تأكيدها مع التجربة التي حصلت لأبناء بلدها من لقائهم بالمسيح. الفرحة المشتركة هي فرحة مضاعفة. الفرح الذي يخصّ الجميع وكل واحد. "إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم".

لا يعتمد الإيمان الحقيقي على الأنباء أو المعلومات بل على الخبرة الشخصية. يقول كاتب المزامير: " ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ". "تعال وانظر"، هكذا قال فيليبس لنثنائيل. يقول آباء الكنيسة، ما لم

ترَ الله في حياتك، فلا تتوقعْ رؤيته بعد أن تموت. فهنا يتمّ ضبط مستقبلاتنا الروحية لاستقبال الله وإدراك ثروات ملكوته.

في هذه الأيام، بشكل خاص، أغلق الناس أجهزة استقبالهم الروحية وصاروا معزولين بالمطلق عن الواقع الروحي. بشكل عام، لم يعد شيء يفاجئهم، لا شيء في حياتهم اليومية، لأنهم جعلوا حياتهم تسير كالآلات وحوّلوها إلى روتين يخدّر العقل. وكما أن تحوّل القداس الإلهي والخِدَم التي يقيمها الكاهن إلى عادةٍ عنده هو كارثة، كذلك تكون كارثة لكل شخص أن يعتاد على حياته اليومية لدرجة أن يصير غير مبالٍ بالفرص والمفاجآت التي تُعرَض عليه.

حياة الإنسان مهمّة تدوم ما دمنا هنا. وهي مليئة بالمفاجآت الصغيرة والعظيمة، الإيجابية والسلبية. الأشياء الإيجابية غالبًا ما نراها بشكل سلبي، والأخرى السلبية يمكن أن نراها ونختبرها بشكل إيجابي. يمكن لأي شخص يحتفظ بـ "الماء الحي" الذي انسكب عليه في المعمودية أن يختبر روتينه اليومي على نحوٍ خلّاق، مع كل المفاجآت الإيجابية والسلبية، مروّياً ظمأه بـ "الماء الحي"، مستوعِباً حقيقة الحياة الأبدية ومعطياً معنى ومادة حتّى للفناء.

Source: Ορθόδοξη Μαρτυρία, όχι. 98, Φεβρουάριος 2012, σελ. 30-4.